مقـــدمة
فى ضرورة البحث

أصبحت الرواية فى منتصف القرن العشرين أكثر أزياء التعبير الأدبى انتشارًا. وبينما كانت فى الماضى وسيلة للتسلية وإشباعًا سهلاً للمخيلة أو للعاطفة، أصبحت تعبر اليوم عن القلب والسرائر والمسئوليات الفنية، التى كانت فيما مضى موضوع الملحمة والتاريخ والبحث الأخلاقى والتصوف والشعر فى جانب منه. كما أن الرواية نظرًا لسعة توزيعها تمثل من الناحية الاجتـماعية أداة الاتصال الأدبى بين الجماهـير المتفاوتة. والرواية تؤمن لكل مجموعة فكرية قوتها المفضل: فهى تقـدم للأذهان وضعية الدراسات الاجتماعية، وتقدم للنفوس الحـساسة ألعاب التحليل النفـسى المرهفة والمخيفة والغـور إلى الأعماق البعيدة، بل هى تقدم لأصـحاب الخصومات الجدلية أنفسهم مناسبة لـلانغماس فى كثير من الحوادث اليومـية. كما تقدم للإنسـان الذى يشعر بمصيـره تساؤلاً دائمًا عن الوضع البشرى أو إنسـانية العالم. كمـا تقدم للجميع المتع الطفـولية التى تثيرها الـقصة المؤثرة والمغامـرة والحكاية. **إن الرواية تقـومُ بدور الكاهن المعـرِّف، والمشـرف السـياسـى، وخادمـة الأطفال، وصحفى الوقـائع اليومية، والرائد التربوى، ومعلم الفلسفـة السرية. وهى تقوم بهذه الأدوار كلها فى فن عالمى، يهدف إلى أن يحل محل الفنون الأدبيـة جميعًا، ويمكن أن يكون – فى أيامنا هذه – شكلاً معممًا للثقافة»**[1].

من هنا كانت مـحاولة التـأريخ الفنى للرواية المصرية – فى رأينا – إنما هى مـحاولة لكشف الضـوء عن مجـال من مجالات تاريخـنا الأدبى الحديث، يجـعلنا أكثـر إدراكًا لواقعنا القريب، وما يُلقيه علينا من مسـئوليات فكرية وجمالية. إن الرواية وتاريخها لا تكشف عن مـسار فـنٍ أدبى فحـسب، بل تُبـرز الوجدان الوطنـى، وتكشف مشـاكل التغيير، وتوضح مـسار الناس وقضاياهم الفكرية والاجتماعيـة. كما أنها تنمُّ من حيث

(١) يُراجع تاريخ الرواية الحديثة: ألبير يس، ترجمة جورج سالم – دار الفكر، بيروت سنة ١٩٦٧، ص ٥، ٦ بتصرف.

الإبداع الفنى عما وصل إليه الأديب العربى فى مصر تأصيلاً لثقافته القومية واستيعابًا للتراث العالمى فى الفن شكلاً ومضمونًا.

ومع أهمية هذا الفن على مستوى الثقافة العالمية، وما أصبح له من تراث كبير ضخم فى تاريخنا الأدبى المعاصر، لم يحظ بدراسة شاملة تؤرخ له كفن أدبى من نشأته حتى اللحظة الآنية المعاصرة. وإذا ما نظرنا إلى تراثنا النقدى الأكاديمى وغيره فإننا نتبين صدق هذه المقولة فما صدر فى هذا المجال يمكنُ حصره فيما يلى:

١ - الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث: محمود شوكت

هذا الكتاب عبارة عن رسالة نال بها مؤلفها درجة الدكتوراه فى الآداب سنة ١٩٤٩ - ولا شك أن مؤلفها بمحاولته تتبع النشاط القصصى كله: من قصص مترجم ومؤلف، اجتماعى وتاريخى، ثم سحب المصطلح على المسرح النثرى والشعرى، كل هذا أوجب عليه بحكم اتساع المساحة وعدم الدقة فى استخدام المصطلح أن يكون بحثه نوعًا من إلقاء الضوء على مجال بكر، لم تسبق دراسته. ولا شك أن المؤلف قدم أول محاولة لتتبع تطور فن الرواية من الترجمة إلى التمصير ثم التأليف. كما أوضح أثر التراث القديم فى نشأة الرواية خاصة ألف ليلة وليلة، ثم أثر المقامة فى القصص المصرى الحديث، وبرغم أننا نجد عنده كثيرًا من الملاحظات الجزئية الذكية على ما درس، فإن دراسته لا تقدم خطًا بيانيًا متكاملاً للرواية كفن أدبى له مساره الخاص، كما لم يحاول أن يربط هذا النوع الأدبى بظروف المجتمع المصرى وحاجاته الفكرية.

* * *

٢ - فجر القصة المصرية: يحيى حقى

صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٠ فى سلسلة المكتبة الثقافية. وقد حاول المؤلف فيه - بذكاء - أن يوضح ملامح العصر الذى ظهر فيه فن القصة فى مطلع القرن العشرين سواء من الناحية الاجتماعية أو الفنية، ويقف وقفات ذكية عند رواية «زينب» باعتبارها النموذج الأول المتفق عليه من حيث فنية الرواية. ويؤرخ بعد ذلك لمحمد تيمور واهتماماته المختلفة فى المسرح والقصة، كما يلقى كثيرًا من الضوء على إنتاج عيسى عبيد وتوفيق الحكيم، ولاشك أن أهم فصل فى هذه الدراسة هو ما كتبه عن «المدرسة

الحديثة» فى القصة، وهو يعد أهم وأثرى مرجع لدراستها.

والكتيب برغم موضوعية النظرة وشموليتها فى التناول - وأنه إذا ما استثنينا ما كتب عن هيكل والحكيم- فإنه أميل إلى الدراسة والتأريخ للقصة القصيرة لا للرواية، بل إنه لم يقف فى أثناء حديثه عن محمود طاهر لاشين وعيسى عبيد ليتناول روايتهما «حواء بلا آدم» (١٩٣٤) و«ثريا» (١٩٢٠)، بل لقد فاته الحديث عن محاولة عمه محمود طاهر حقى «عذراء دنشواى» (١٩٠٦). ومع هذا تبقى للكتاب قيمته النقدية والأدبية باعتباره صادراً عن ناقد وأديب معاصر لما كتب.. فالكتاب إذن شهادة فنية على العصر.

* * *

٣ - دراسات فى الرواية المصرية: على الراعى

هذا الكتاب تجميع لمقالات كتبها المؤلف بين سنتى ١٩٥٦ - ١٩٦٢ عن أعمال مختلفة فى مجالات الرواية، تبدأ من «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى (١٩٠٥)، وتنتهى بثلاثية نجيب محفوظ (١٩٥٦)، ويدرس الراعى فى هذا الكتاب عشر روايات تعدُّ - بحق - من أهم نصوص إنتاجنا الروائى الحديث، والكتاب برغم عمقه فى دراسة هذه الأعمال وتحليلها، فإنه يدرس كلا منها على حدة - دون محاولة لربط هذه الأعمال ببعضها أو إيجاد علاقة فنية أو فكرية بالظروف الاجتماعية التى حدثْت إبان ظهورها.

* * *

٤ - تطور الرواية العربية الحديثة، عبد المحسن بدر

الكتاب محاولة جادة لا لتأريخ الرواية العربية فحسب، وإنما هناك جهد جاد مخلص للبحث عن الأنواع التى أسهمت فى ظهور الرواية الفنية مثل الرواية التعليمية، ورواية التسلية والترفيه. وعلى هذا فقد تتبع المؤلف بأناة ومنهجية منضبطة نشأة الرواية وتطورها بين سنتى ١٨٧٠، ١٩٣٨. وهكذا تقف هذه الدراسة عند أعمال رواد

الرواية، وتبقى بعد ذلك حوالى أربعين سنة من عمر الرواية تحتاج إلى تأريخ ودراسة(*).

* * *

وقد لاحظ الباحث فى أثناء دراسته للدكتوراه «صورة المرأة فى الرواية المعاصرة» أن الرواية المصرية تحتاج إلى نوعين من الدراسة والبحث، حتى يمكن رسم صورة صادقة لمسارها التاريخى:

الأولى - تأريخ للرواية يُبين مراحلها الفنية ومدراسها الأدبية وعلاقة الرواية بالواقع، الذى تنعكس عنه سواء من حيث المضمون الفكرى أو القيم الجمالية.

الثانى - عمل ببليوجرافى دقيق يقوم بعملية مسح شامل للروايات الفنية التى صدرت فى مصر، حتى تكون وثيقة صادقة لأية دراسة فى مجال الرواية. وسوف نصدرها مع الجزء الثانى - من هذا الكتاب - بإذن الله.

انطلاقًا من هذا كله كانت الحاجة إلى الدراسة التى نقدمها، لتسدّ فراغًا لمسنا ضرورة بحثه وإلقاء الضوء عليه، أى أن أهمية الرواية كفن أدبى وجماهيرى - إن صح هذا التعبير - كان دافعنا إلى هذه الدراسة. ونظرًا لاتساع الرقعة الزمنية للبحث لم يكن هناك مفر من أن نقسم هذه الدراسة إلى جزءين:

(*) ثمة دراسات أخرى صدرتْ فيما بعد عن الرواية فى مصر ومن أهمها:

- طه وادى : - صورة المرأة فى الرواية المعاصرة (١٩٧٣)
- دراسات فى نقد الرواية (١٩٨٩).
- الرواية السياسية (١٩٩٦).
- شفيع السيد: اتجاهات الرواية المصرية (١٩٧٩).
- أحمد هيكل: الأدب القصصى والمسرحى فى مصر (١٩٦٨).
- محمد حسن عبد الله: الواقعية فى الرواية العربية (١٩٧١).
- أحمد الهوارى: البطل المعاصر فى الرواية المصرية (١٩٧٩).
- فاطمة موسى: فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢).
- سيزا قاسم: بناء الرواية (١٩٨٣).
- عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية (١٩٨٩).

الجزء الأول: تناول تطور الرواية حتى ثورة ١٩٥٢، وهو الذى نقدمه فى هذا البحث.

الثانى: يتناول اتجاهات الرواية بعدسنة ١٩٥٢: وهو ما نأمل أن نقدمه قريبًا بإذن الله.

* * *

وعلى هذا فقد فرضت ضرورة البحث منهج دراسته، ومن هنا كانت محاولتنا رسم خط بيانى لتطور الرواية معتمدين على الرواية نفسها. وبرغم إيماننا بضرورة ربط الظاهرة الفنية بالواقع الذى تعكسه وتصوره، فإننا سنحاول ربط تاريخ الرواية - بالدرجة الأولى - بالرواية نفسها، ونخرج من ذلك بما نرى من دلالات اجتماعية وفكرية وفنية.. على ضوء المنهج الاجتماعى فى النقد.

وتقع هذه الدراسة فى ثلاثة أبواب، يمثل كل منها مرحلة فى تاريخ الرواية الحديثة:

الباب الأول: فجر الرواية: ويقف فى البداية عند العوامل المؤثرة فى نشأتها مؤكدًا صلة الرواية كفن بتراثنا القصصى والشعبى من حيث المضمون، وإن اختلفت عنه فى بعض عناصر الشكل، ثم يقف بعد ذلك عند أهم الأعمال الأدبية المرهصة لنشأة الرواية حتى نصل إلى رواية زينب لمحمد حسين هيكل ١٩١٤، ثم يبحث فترة الجزر والنضوب فى الرواية حتى سنة ١٩٣٣. ويوضح كيف أن القصة القصيرة والمترجمة والمعربة خاصة عند المنفلوطى والزيات ومحمد تيمور، قد سدت فجوة الفراغ الأدبى فى هذه المرحلة.

الباب الثانى: مرحلة التطور والتأصيل: تبدأ من سنة ١٩٣٣ حيث ظهرت رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وتنتهى عند سنة ١٩٤٤، حين توقف كثير من رواد الرواية، وأذنت سنة ١٩٤٥ بميلاد كتاب جدد فى المذهبيْن الرومانسى والواقعى، يتميزّون بسمات مغايرة فنيًا عمن سبقوهم فى الشكل والمضمون.

وفى نهاية الباب يوضح البحث السمات العامة لفن الرواية فى هذه المرحلة التى تمثل ازدهار الرواية الرومانسية، ثم عجزها - بعد ذلك - عن مواكبة حركة المجتمع وتطلع الفئات الصاعدة، مما أدى إلى أن تظهر بعض الأعمال المرهصة لنشأة المذهب الواقعى فى الرواية، الذى ساير المذهب الرومانسى فى هذه المرحلة، وأنتج أعمالاً فنية ناضجة برغم قلتها العددية بالنسبة للرواية الرومانسية.

الباب الثالث: مرحلة النضج والتخصص: يُلاحظ أن الرواية - برغم تطورها فى المرحلة السابقة- كان كتابها بالنسبة للرواية (هواة) فى الغالب؛ أما فى هذه المرحلة فقد تخصص فى كتابة الرواية معظم من شارك فيها. وقد سارتْ الرواية فى هذه المرحلة فى تيارين: أحدهما مقلد للرومانسية كما ظهرت عند رواد الرواية.

وثانيهما مجدد يرسى دعائم المذهب الواقعى فى الرواية.

ومن هنا انقسم الباب الثالث إلى فصلين:

الأول عن: الرواية الواقعية: حيث يتتبع مراحل تطورها ويقتصر على دراسة أعمال نجيب محفوظ التى سبقت الثلاثية. وفى النهاية يقدم مجملاً لسمات الرواية الواقعية من حيث الشكل والمضمون.

الثانى عن: **الرواية الرومانسية:** يوضح فى البداية سر استمرار الرومانسية فى الرواية، وأهم كتاب هذه المرحلة: محمد عبد الحليم عبد الله - عبد الحميد جودة السحار - يوسف السباعى - محمد فريد أبو حديد.. وغيرهم. وبعد تتبع الإنتاج الروائى لكتاب هذا التيار يوضح البحث سمات الرواية عندهم.

وفى النهاية يقدم البحث تقييمًا عامًا للرواية برافديها فى هذه المرحلة، استشرافًا لطبيعتها فى المرحلة القادمة بعد الثورة التى سوف نقوم بدراستها، تمهيدًا لإصدار الجزء الثانى من مؤلفنا هذا عنها- إن شاء الله.

* * *

ومع سمو الدافع لهذه الدراسة وإحساسنا الشديد بضرورتها - كما أوضحنا - فإننا لا نستطيع أن نزعم أننا قد وفينا هذا الموضوع حقه من الدراسة، وإنما هو محاولة جادة لدراسة قطاع من تاريخنا الفكرى، تسهم فى إثراء اللحظة الآنية وبناء مستقبل مشرق لا تحده آفاق لمصرنا العربية العزيزة.

والله أسأل أن يهدينا جميعًا إلى طريق الخير، والرشاد، وأن يعم الخير أرجاء البلاد، وأن تنتشر المعرفة بين العباد.

أكتوبر ١٩٧١ **طه وادى**